ألفاظ الزمن ودلالاتها في شعر أبي العتاهية

أ.م.د. ثائر سمير حسن الشمري

جامعة بابل / كلية التربية الأساسية

كان الزمن وما يزال مصدر اهتمام الناس عامة، والفلاسفة والحكماء والشعراء خاصة، لما له من أثر كبير في حياتهم وتفكيرهم، فصِلَةُ الزمن بالإنسان صلة وثيقة لا يمكن غض النظر عنها ، لذا نراهم يتطرّقون له في كل مناسبة، متحدّثين عن آثاره وأفعاله من خلال فلسفاتهم وحكمهم وقصائدهم، فلا يتركون شيئاً متعلقاً به إلّا وصفوه، وأسهبوا القول فيه، متناولين جوانبه كلها من دون استثناء، حتى أن بعضهم بالغ في ذلك الوصف، وفي ذلك دلالة أكيدة على قوّة تأثيره في حياة البشر.

فالإغريق القدامى عدّوا الزمن تهديداً متصلاً لحياتهم، وكانت العقائد الاورفية (نسبة إلى اورفيوس الذي وضع أحكامها في أشعاره) تصور الزمن منذ القرن السادس قبل الميلاد في صورة كائن مقدس هو الذي خلق النار والهواء والماء، ويصف ارسطو طاليس الزمن بأحكم الحكماء لأنه يكشف كل شيء، ويرى سولون أنه يظهر الحقيقة، أما سيمونيدس فيجعل له أسنانا تمزّق كلّ شيء إرباً إربا، ويقول عنه ثيوجينيس إنه يكشف الغطاء عن كلّ شيء، ويرى يوبيدس أن الزمن والد العدالة والبلسم الذي يداوي الجراح، ويذهب سوفوكليس إلى أنه يلد الأيام والليالي[١].

وفيما يتعلق بالشاعر العربي، فقد كان اعتقاده قبل الإسلام ((راسخاً بأن الدهر – أو الزمان – هو الشيء المتخفي وراء قناع الموت، حيث يسلطه على الموجودات ويحيلها إلى عدم، أو أن الدهر هو القوة الهائلة التي تسبب الكوارث الطبيعية وترتبط بأنواع الشرور الموجودة في الطبيعة)) [٢] .

وكانت تلك الأفكار تراود الشعراء العرب منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا، وهناك رأي مفاده أنّ ((الفرق بين الشاعر المبدع والشاعر المتخلف يكمن في موقفهما ازاء الزمن وصدور ردود أفعال عندهما عن أفعال حقيقية أو مفتعلة))[٣] ، لذا كان أبو العتاهية أحد الشعراء المبدعين في وصف الزمن من حيث الكثرة، ومن حيث الدلالات التي تطرّق لها كما سنرى في بحثنا هذا.

ولكن لابد لنا – قبل التطرق لدلالات ألفاظ الزمن في شعر أبي العتاهية– من الإشارة إلى تعدد الدراسات والبحوث التي تناولت فكرة الزمن من الوجوه المختلفة، وفي ذلك ما يؤكد ما ذهبنا إليه من اهتمام الناس عموماً، والمفكرين بعناوينهم كلها على وجه خاص بالزمن وتأثيره في حياة البشر[٤] .

كما تجدر الإشارة إلى كثرة ورود لفظة الزمن ومرادفاتها في القرآن الكريم[٥] ، كثرة تدلّ – من وجوه عديدة – على اهتمام الذات العلية بالزمن، وبالتالي فان ذلك ممّا يعزز الدراسة هذه ويعطيها بعداً إنسانيا عميقاً، ومن تلك الألفاظ: (الساعة، اليوم، الأمس، الغد، الليل، النهار، الصباح، الشهر، السنة، الحول، الوقت والزمن)، وهذه الألفاظ كلها التي وردت في القرآن الكريم، نجدها ماثلة في شعر أبي العتاهية ، فضلا عن لفظة (الدهر)، فكثيراً ما كان الشاعر يردد اللفظة هذه في شعره، فقد كان (الدهر) يمثل الزمن لديه بأجزائه كافة ، وبتفصيلاته الدقيقة ، وذلك ما يؤكده الشاعر نفسه في قوله:

هـــلِ الـــدهرُ إلّا ليلـــة ثـــم يومُهـــا وحـــولٌ إلـــى حـــولٍ وشـــهرٌ إلـــى شـــهرِ[٦]

والزمن يشعر به كل إنسان أو أكثر الناس جملة ، ويشعرون بيومه ، وأمسه، وغده، والزمان يشعر به كل إنسان بكل ما مضى منه وما سيأتي في المستقبل البعيد منه والقريب[٧] .

أنّ أوّل ما يلقانا في شعر أبي العتاهية فيما يخص الزمن، هو تلك النظرات والرؤى التشاؤمية – إن صحّ التعبير – فكثيراً ما نجده ناقماً على الزمن، غير مطمئن له، فله فيه فلسفة خاصة، لذا كان حريصاً على عدم إبداء تفاؤله به، ناصحاً

بعدم الاغترار بسروره، لأن ذلك السرور – برأيه– لن يدوم طويلاً ، بسبب طبيعة الزمن الذي اعتاد على التغيير وقلب الأمور من حال إلى حال.

وإذا أردنا الاستدلال على بعض تلك الرؤى التشاؤمية في شعره، لوجدنا أنه – مثلاً– في بعض شعره، يعبّر عن عدم ثقته بالناس ؛ لأنهم – من وجهة نظره – منقلبون في طبيعة علاقاتهم الاجتماعية ، فهم على علاقة وطيدة مع المرء حينما تُقبِلُ الدنيا عليه، وتسالمه، وعلى العكس من ذلك تماماً حين تتقلب الأحوال معه سلبياً ، فهم ينقلبون ويتغيرون عنه مع تغير الزمن وانقلابه ، وذلك واضح في قوله:

مـا النـاسُ إلّا مـع الـدنيا وصـاحبها فكيـف مـا انقلبـتْ يومـاَ بـه انقلبـوا[٨]

وشكّلت شكوك أبي العتاهية بالمستقبل، وعدم ثقته بما سيأتي، احدى رؤاه السلبية فيما يتعلق بالزمن، ففي الوقت الذي يعلم فيه بأنّ الأمس ماضٍ لا يمكن ردّه، نراه يعلن عن عدم ثقته من يوم غد قائلاً:

أضـيعُ مـن العُمْـر مـا فَـي يـدي وأطـلُبُ مـا لـيس لـي فـي يـدْ

أرى الأمـسَ قـد فـاتني رَدُّهُ ولسـتُ علـى ثِقـةٍ مـن غـدِ[٩]

ويرى بعضهم أن التطلّع للمستقبل يتم عن طريق الوعي بأسرع مما يتم الالتفات إلى الماضي. ثم يصبح هذا الميل في حياتنا صارخاً وقويًا، لأننا نعيش في شكوكنا ومخاوفنا وتوجساتنا وآمالنا حول المستقبل أكثر مما نعيش في ذكرياتنا وتجاربنا الراهنة، وقد تظهر هذه الحقيقة كمحنة مؤذية للإنسان؛ لأنها تُوجد عنصراً من الحيرة، والقلق في الحياة الإنسانية [١٠] .

ولعلّ في الرأي هذا ما ينطبق على شعور أبي العتاهية وتفكيره، فطالما يتملكه إحساس مأساوي من الآتي، لذا كان كثيراً ما يردد خوفه مما سيأتي، ولعلّه تلقّى من الزمن ما جعله متشائماً بالصورة هذه، نظراً لطبيعة حياته التي كانت متغيرة ومتقلبة كما هو معروف من سيرته.

وربّما كان شكّه بالزمن المستقبلي نابعاً– أصلاً – من الواقع، بمعنى أنّ الشاعر لم يكن يتخيّل أو يدّعي التشاؤم، أي أنه لم يكن متطيّراً كابن الرومي مثلاً، بل كان الزمن معانداً معه، وربّما في البيت الآتي ما يدل على حقيقة مخالفة الزمن معه:

إذا مـا انقضـى يـومٌ بـأمرٍ فقلتُ قد أمِنـتُ أذاهُ أحـدَثَتْ ليلـة أمْـرا[١١]

فبعد اعتقاده بانتهاء يومه من غير حدوث ما يعكّر مزاجه، ويخلط صفوه، تأتيه الليلة بما كان يخشى وقوعه ، وفي ذلك كانت محنة أبي العتاهية مع الزمن ، تلك المحنة التي دفعته إلى اطلاق نصيحته التي ربما تكون لنفسه قبل غيره، والتي يرى فيها أنّ على الإنسان أن يتحلّى بشيء من الشكّ فيما يتعلق بالزمن ؛ لأن الزمن مطبوع على عدم المسالمة مع الآخرين ، فكثيراً ما يكدّر صفوهم كما يقول الشاعر:

أحسـنتَ ظنّـكَ بالأيّـامِ إذ حَسُـنَتْ ولـم تَخَـفْ سـوءَ مـا يـأتي بـه القَـدرُ

وسـالَمَتْكَ اللّيـالي فـاغتَرَرْتَ بهـا وعنـد صَـفوِ اللّيـالي يَحـدُثُ الكَـدَرُ[١٢]

إنّ النظرات هذه، أو الرؤى التشاؤمية أدّت بالشاعر في خاتمة المطاف إلى نَعْتِ الزمن بكلّ ما هو سلبي، لذا نراه يضفي عليه الصفات التي أقلّ ما يمكن أن يُقالَ عنها إنها تدلّ من جانب أو آخر على حقد أبي العتاهية على الزمن، فالزمن عنده هو الذي يقطع المودّة بين الناس، ويمزّق الجماعات، ويكدّر الصفاء، يقول:

أيـا عَجَبـاَ للـدهر لا بـل لريبِـه تَخَـرَّمَ رَيـبُ الـدهرِ كـلّ إخـاءِ

ومَـزّقَ رَيـبُ الـدهرِ كـلّ جماعـةٍ وكَـدَّرَ رَيـبُ الـدهرِ كُـلّ صَـفَاءِ[١٣]

وينعته –كذلك– بالمراوغة، وأنه يُغري الآخرين بالأشياء الجيدة، ثم يقوم بما ينوي فعله من الأمور السلبية بعد إقناعهم بايجابيته:

والـــــــدهرُ روّاغٌ بأبنائِـــــــهِ يغَـــرُّهُمْ منـــــه بحَلْوَائِـــهِ(١٤)

والزمن – لديه – يلعب بالناس كيفما يشاء:

واعلَـمْ بـأنَّ الأيّـامَ يلعـبنَ بالـــ ـمَرْءِ وأنّ الزمـانَ ذو غِيَـرِ(١٥)

وهو – أي الزمن – الذي يترك الناس يدعون بالويل والعويل، وهو الذي ينغّص لهم حياتهم ، ليس ذلك فحسب، بل هو القاتل الذي يقبض الأرواح ويغتال النفوس:

كـمْ تـرك الـدهرُ مـن أنـاسٍ يـــدعونَ بالويـــلِ والعَويـــلِ

كـمْ نَغَّـصَ الـدهرُ مـن مَبيـتٍ علـــى ســـرير ومـــن مَقِيـــلِ

كـمْ قتَـلَ الـدهرُ مـن أنـاسٍ مَضَـوا وكـمْ غـالَ مـن قبِيـلِ(١٦)

وما قاله أبو العتاهية في الزمن، وما نسبه من صفات سلبية له، يُعدُّ من قبيل سَبّ الدهر، وذلك ممّا لا يصحّ على الإطلاق، وفي ذلك أحاديث صريحة تَنهى المسلم عن سبّ الدهر، فقد كان الناس يسبّون الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بهم من موت أو هرم أوتلف مال أو غير ذلك، فيقولون: يا خيبة الدهر، أو نحو هذا من ألفاظ سبّ الدهر.فقال لهم النبي (صلّى الله عليه وعلى آله وسلم): لا تسبّوا الدهر فإن الله هو الدهر، أي لا تسبّوا فاعل النوازل فإنكم إذا سببتم وقع السبّ على الله تعالى، لأنه هو فاعلها ومنزلها؛ وأما الدهر الذي هو الزمان فلا فعل له، بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى[١٧] .

ويبدو أن أبا العلاء المعري انتبه إلى المفهوم الخاطئ هذا عن الدهر عند العرب؛ فحاول تصحيحه من خلال قوله:

إذا قِيـلَ غـالَ الـدهرُ شـيئاً فإنّمـا يُـرادُ إلـه الـدهرِ والـدهرُ خـادمُ[١٨]

إلاّ أن أبا العتاهية لم يكتفِ بما أضفى على الزمن من الصفات السلبية السابقة، بل ذهب إلى ما هو أشد من ذلك ، مبالغة منه في ابراز سلبية الزمن ، فوصفه بالغدر قائلاً:

ألَسْـنا نـرى غَـدْرَ الزمـانِ بأهلِـهِ ألسـنا نـرى عَطْـفَ المنايـا وكرَّهـا[١٩]

وتتصف الأيام –كذلك– بصفة الغدر، فهي لم تُعطِ موثقاً للشاعر لكي يعتمده، على الرغم من ثقته بها:

وَثِقْـتَ بأيّـامي علـى غَـدَراتِها ولم تُعْطِنـي الأيّـامُ منـهُنَّ مَوْثِقا[٢٠]

وإذا كان أبو العتاهية قد نعت الزمن بالغدر في البيتين السابقين، فانه في أبيات أُخر نعته بالخيانة، فكثيراً ما كانت الصفة هذه تتردد في شعره منسوبة إلى الزمن، وإنْ دلّ ذلك على شيء، فإنّما يدلّ على تأثيره الكبير فيما يفعله الزمن معه من أمور لا تنال رضاه، بل على العكس من ذلك، يحصل الزمن بسببها على سخطه وتمرده عليه، لذا يرى الشاعر أنّ الزمن كثيراً ما يخون، وذلك واضح في قوله:

ولقـلّ مـا دامَ السُّـرورُ لِمَعْشَـرٍ ولطالمـا خـانَ الزمـانُ وغـالا[٢١]

والدهر – برأي أبي العتاهية – كثير العجائب، إذ لا بد فيه – لآمن الأيام– من يوم تكون فيه الخيانة قد لعبت دورها، وحصدت ما كانت ترجوه من إيذاء الناس المطمئنين له:

والـــــدهرُ دائبـــــةً عَجـــــا ئِـــبُ صَـــرْفِهِ جَـــمُّ الفنـــونِ

لابُـــدَّ فيـــه لآ مِـــنِ الـــ أيّـــامِ مـــن يـــومٍ خـــؤُونِ[٢٢]

وتتكرر في شعر أبي العتاهية نسبة صفة الخيانة إلى الزمن أو إحدى مرادفاته، ومن ذلك قوله في بيان خيانة الزمن له مع أنّه كان آمناً من خيانته تلك:

أمِنْتُ الزمانَ والزمانُ خؤُونُ لـه حَرَكاتٌ بالبِلى وسُكونُ[٢٣]

ويبلغ التشاؤم بالشاعر إلى أقصى غاياته، حين يعلن أنّ الأيّام كلّها خائنة، فهو لم يرَ يوماً واحداً في حياته لم يقم بخيانته، وفي التصريح هذا مبالغة كبيرة في نسبة الصفة هذه (الخيانة) إلى الزمن:

تأمَنُ والأيّامُ خَوَّانَةٌ لم نَرَ يوماً واحداً لم يَخُنِ[٢٤]

ولا تقتصر نسبة الصفات السلبية إلى الزمن على ذلك فحسب ، بل تعددت لدى الشاعر بشكل يجذب النظر[٢٥]، ويدعو إلى التساؤل الآتي : لماذا نعت أبو العتاهية الزمن بتلك الصفات الرديئة كلها؟ أو ما المسوّغات التي دفعته إلى نسبة تلك الصفات السلبية إلى الزمن؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إنّ للشاعر أسباباً دفعته إلى نعت الزمن بتلك الصفات التي تحدّثنا عنها فيما مضى، كان أبرزها أنه عدَّ الزمن مسؤولاً عمَّا يحدث من المصائب المتوالية، فهو مختلف مع الأيام والليالي لأنهما دائماً يأتيان بالخطوب المزعجة والمقلقة للشاعر:

ما يُرتَجَى بالشّيء ليس بنافِعٍ ما لِلخُطوبِ ولِلزّمانِ الفاجعِ

ولعَلّ يومٌ مَرَّبي أو لَيلةٌ لم يَقْرَعا كبدِي بِخطْبٍ رائِعِ[٢٦]

والأيام مسؤولة –كذلك– عن تغيّر أمور كثيرة تتعلق بحياته كلّها، فقد غبنته عقله وماله وشبابه وصحته وفراغه على حدّ قول الشاعر نفسه:

غبنتني الأيّامُ عقلي ومالي وشبابي وصِحّتي وفراغي[٢٧]

إذن كان الزمن عند أبي العتاهية – مسؤولاً عن أمور مختلفة كانت تحدث له، دعته إلى وصفه بتلك الصفات غير الايجابية، وأهم تلك الأشياء التي أزعجت الشاعر، ونالت من راحته، التبدّل والتغيّر الذي أصابه من جوانب حياته المختلفة، ((لأن الزمان هو الصورة التي تعطي لهذا العدم الماثل في الأشياء مظهر البقاء الزائل، وهو الذي يقضي على ما بين أيدينا من مسرّة واغتباط))[٢٨].

وفيما يأتي سنحاول الحديث عن ذلك التبدّل والتغيّر الذي صوّره لنا أبو العتاهية في شعره من جهة، وجعل الزمن مسؤولاً أوّلاً وأخيراً عنه من جهة ثانية.

فالزمن كان سبباً في ذهاب الشباب، الذي ما انفكّ الشاعر يذكره في شعره، ويتحسّر على فقده، وفي تلك الذكرى يكمن أثر الزمن في وعي الشاعر ولاوعيه، بدلالة ذكره الأيّام مرّتين في البيت الآتي:

لِلّهِ أيّامٌ نَعِمْتُ بِلِينِها أيّامَ لي غصْنُ الشّبابِ رَطيبُ [٢٩]

فابتعاد الشباب، وتقدّم العمر بالإنسان سببه الرئيس –من وجهة نظر أبي العتاهية– هو الزمن، فهو الوحيد القادر على استلاب الشباب من خلال تقلبه بالإنسان، ونقله من حال إلى حال:

ألاَ وأراكَ تَبْذلُ يا زماني لي الدنيا وتُسْرِعُ باسْتِلابي

وإنّكَ يا زمانُ لذو صُروفٍ وإنّكَ يا زمانُ لذو انقِلابِ[٣٠]

والدهر يخطف الأحباب، وكذلك الجيران، فيقضي على أعمارهم، بسبب حركة الزمن التي لاتتوقف، ويبرز أثر تلك الحركة في انقضاء الأعمار والآثار على حدّ سواء:

إنّ للدهر فاعْلَمَنَّ عِثارا فإلى كم، أمَا ترى الأقدار

تَتَـــوَخّى الآلاف إلفـــاً فإلفـــاً وتُثَقّـــي الجيـــران جـــاراً فجـــارا

لـــو عَقَلْنـــا إذ النهـــارُ يَسُـــوقُ الـــ ـــيْـــلَ والليـــلُ إذ يَســـوقُ النهـــارا

لرأيناهُمـــــا بِمَـــــرٍّ حَثيـــــثٍ يَطِويـــانِ الأعْمـــارَ والآثـــارا[٣١]

لقد ((كانت تجربة الإنسان بالزمن تجربة أليمة لأنها تشعره دائماً بتناهيه وانقضائه))[٣٢]، لذا نرى أبا العتاهية معبّراً عن ذلك الألم من خلال تصوير سرعة حركتي الليل والنهار وأثرهما في سمع الإنسان وبصره قائلاً:

مـا أسـرع اللّيـلَ والنهـارَ علـى الـ ـإنسـان فـي سَـمْعِهِ وفـي بَصَرِهْ[٣٣]

وكان كثيراً ما يردد الفكرة هذه في شعره المتعلق بالزمن، فيعكس بذلك مدى شعوره بالتبدّل والتغيير من حال إلى حال أخرى، فمن ذلك –مثلاً– قوله:

أصبحتُ ألعَبُ والساعاتُ مُسْرِعَة يَنْقَصْنَ رزقي ويستقْصِينَ أنفاسِي[٣٤]

من ذلك كلّه تبيّن لنا مدى شعور أبي العتاهية بحركة الزمن، التي لم يكن راضياً عنها؛ لأنها كانت تشعره بانقضاء عمره، وذهاب شبابه، وغير ذلك من الأمور الايجابية التي كان يتمتع بها قبل أن يأخذ منه الزمن مأخذاً كبيراً، لذا نراه يُكثِرُ في شعره من التعبير عن حركة الزمن المتواصلة من دون انقطاع[٣٥]، والتي تكون نتيجتها النهائية تبدّل الإنسان من حال إلى حال مختلفة، وذلك ما انتبه اليه الشاعر، وعبّر عنه بأسىً كبير في قوله:

لـــيس اللّيـــالي ولا الأيّـــامُ تارِكـــة شيئاً يَدومُ مِنَ الدُّنيا على حالِهْ[٣٦]

وبذلك علمنا أنَّ الشاعر نسب كلّ ما هو غير مرغوب فيه إلى الزمن، فجعله مسؤولاً عن تبدّل حال الإنسان وتغيّره، وذلك من منطلق أنه إذا ((حدثت الحوادث صارت تلك الحوادث المتعاقبة مقارنة له، وحينئذٍ يلزم من وقوع التغيّر والتبدّل في نسب ذلك الجوهر إلى تلك الحوادث))[٣٧].

وكان الزمن مسؤولاً عن بياض الشعر عند الشاعر ، فهو الذي قلب ذلك السواد إلى بياض بحسب تعبير أبي العتاهية في قوله:

قَلـبَ الزمـانُ سـوادَ رأسِـكَ أبيضـا ونَعـاكَ جسْـمُكَ رِقّـةً وتَقَبُّضـا[٣٨]

وذكر إخوان الصفا في إحدى رسائلهم ((أنّ من كرور الليل والنهار حول الأرض يحصل في نفس مَنْ يتأمّلها صورة الزمان))[٣٩]، والفكرة هذه عينها تصوّرها أبو العتاهية، وعبّر عنها في شعره، إذ جعل الليل والنهار هما السبب المباشر في شيب رأسه، فقال:

اللّيـــلَ شَـــيَّبَ والنهـــارُ كِلاهُمـــا رأسـي بِكثـرَةِ مـا تـدورُ رَحاهُمـا

يَتَنَاهبـــانِ لحُومَنـــا ودِ ماءَنـــا ونُفوسَـنا جهـراً ونحـن نَراهُمـا[٤٠]

وربما كان الشاعر يمرُّ بحالة نفسية متأزّمة حينما قال هذين البيتين، وذلك من خلال جعله لليل رحىً تدور به، وللنهار رحىً أخرى تدور به هو الآخر، ورحى كلاهما دائمة الدوران، فهما لا تتوقفان أبداً بدليل قوله(بكثرة)، وذلك الدوران كان مصدر تعاسته، ولعلّ اختيار الشاعر لمفردة الرحى لم يكن مجرد مصادفة غريبة، بل كان قاصداً في اختيارها، لما تحمله المفردة هذه من دلالة بعيدة تدل على الشيب الذي امتلأ به رأسه، فالرحى آلة معروفة تقوم بالدوران، ثم تنتج الدقيق الأبيض، فإذا علمنا أن الشيب يتصف بالبياض هو الآخر، تبيّن لنا نوع العلاقة بين دوران الاثنين (الليل والنهار) و(الرحى)، فدوران كلٍّ منهما تكون حصيلته اللون الأبيض (الدقيق والشيب)[٤١].

وثمّة ملاحظة أخرى في البيت الأول، وهي أنّ الشاعر قام بتقديم الليل على النهار، وربما كان –من وراء ذلك– قصد بعيد رمى إليه أبو العتاهية، إذ إنّ الليل –بسواده– يمثّل الشباب عند الشاعر، وهو –بذلك– يتقدّم منطقياً على النهار الذي يمثّل الشيب بنصاعة بياضه[٤٢].

وبما أن الموت يمثّل المرحلة الأخيرة من حياة الإنسان، آثرت الحديث عنه هنا بعد الحديث عمّا سبق من أمور، على الرغم من كثرة النصوص الشعرية التي حمَّلَ فيها الشاعر الزمن مسؤولية ذلك، وجعله سبباً مباشراً لموت الإنسان.

ولعلّ ما قاله أبو العتاهية في الموت من أجمل نصوصه الشعرية وأروعها على الإطلاق، لأنه قال تلك النصوص بانفعال صادق، وشعور مليء بالأسى، لاقتراب النهاية الحتمية لكل إنسان في هذه الدنيا، ومما زاد من روعة تلك النصوص هو اقتران الموت فيها بالزمن، فالزمن هو السبب الأساس في إحداث الموت عند كثير من الشعراء، ولا يستثنى من ذلك أبو العتاهية ، أو أن الزمن بحركته المستمرة كان يدفع الإنسان شيئاً فشيئاً إلى مصيره النهائي، وبالتالي فهو يعجّل من اقتراب منيّته، وذلك كلّه ممّا صوره الشاعر خير تصوير كما سنرى.

إلّا أن الملاحظة البارزة في تناول أبي العتاهية لقضية الموت وارتباطها بالزمن، هي أنه أكثَرَ في شعره من الحديث عنها كثرة مفرطة، وذلك ممّا جعله واحداً من أكثر الشعراء العباسيين تطرّقًا للزهد في قصائده، ولاسيما في ذكر الموت[٤٣] .

ولتعزيز هذا القول، ولتأكيد مفهوم الموت وارتباطه بالزمن ارتباطاً وثيقاً، لابد لي من التمثيل ببعض النصوص من شعر أبي العتاهية، متناولاً جوانبها المتعددة، وتأملات الشاعر التي لم تخرج عن كون الزمن مسؤولاً عن اقتراب المنية، بل جعله عنصراً مباشراً في إحداثها.

فهو يرى أنّ كلّ صباح يوم جديد ، يزيد الإنسان اقتراباً من موته ، فيقول في ذلك:

أراكَ وكُلّما أغلقْتَ باباً ... من الدنيا فتَحْتَ عليكَ بابا

ألَمْ تَرَ أنّ كُلّ صباحِ يَومٍ ... يَزيدُكَ من منيّتكَ اقتِرابا[٤٤]

وفي بعض الأحيان يتجه الشاعر إلى المتلقين بشكل مباشر، من أجل تحذيرهم ممّا هم عليه من اللهو واللعب، ويحذّر نفسه في الوقت ذاته، منبّهاً إلى أنه يُحصي الأيام، وذلك الإحصاء يجعله على علم ويقين من اقترابه من مصيره المعلوم، فغداً يقترب منه، وبعد غد يتقرّب من ذلك المصير أكثر، فيقول:

يا إخوتي آجالُنا تتقرّبُ ... ونحنُ مع اللاهِينَ نَلهو ونلعَبُ

أعَدِّدُ أيّامِي وأحصِي حِسابَها ... وما غفلَتي عَمَّا أعُدُّ وأحْسُبُ

غداً أنا من ذا اليومِ أدنى إلى ألفنا ... وبعد غَدٍ أدنَى إليه وأقرَبُ[٤٥]

وعندما تسيطر قضية الموت على مخيلة الشاعر ، نراه يتمنّى الخلود ، ولكنه يعلم تماماً استحالة تحقّق تلك الأُمنية ، لأنه مدرك لوثبة المنايا عليه ، فيصل إلى درجة عالية من التشاؤم ، بل والخوف من أنه ربّما إذا أمسى حيًّا، لن يَعيش إلى الصباح:

أؤَمِّلُ أن أخَلّدَ والمنايا ... يَثِبْنَ عَلَيَّ من كلّ النواحي

وما أدري إذا أمسيتُ حيًّا ... لعلّي لا أعيشُ إلى الصباحِ[٤٦]

ولذلك نراه يدعو الآخرين إلى الحذر من الموت، لأنه سيأتي في يوم من الأيام:

إنّ للإنسان يوماً صَرْعَة ... ينبغي للمرءِ أن يَحْذرا[٤٧]

ولا يكتفي الشاعر بأن يجعل للموت يوماً محدّداً يزور فيه الإنسان، بل يحدّد الساعة التي يأتي فيها أيضاً، فربما تكون ساعة الموت إحدى ساعات الليل أو النهار:

لـــكَ ســـاعةٌ تأتيـــكَ مـــن ســـاعاتِ لَيلِـــكَ أوْ نهـــارِكْ[٤٨]

وما دام الموت يفاجئ الإنسان على هذا النحو، فلمَ لا يتخذ الإنسان احتياطاته، ويتزوّد من أعمال الخير استعداداً لمثل هذا اليوم وهذه الساعة، وذلك ما كان يدور بخلد الشاعر حينما كان يخاطب أخا الميت قائلاً له: سيأتي عليك يوم تُشيَّعُ فيه إلى قبرك كما تُشيِّع اليوم أخاك:

ابلــغ الجــامِعَ أنْ لــو قــد أتــى يومُــهُ لــم يُغْــنِ عنــهُ مــا جَمَــعْ

[...]

يــا أخــا الميْــتِ الــذي شَــيّعَهُ فحَثْــا التُّــرْبَ عليــهِ وَرَجَــعْ

ليـت شـعري مـا تَـزَوَّدْتَ مـن الـزّ زَادِ يــا هــذا لهَــولِ المُطّلَــعْ

يــومَ يَهــديكَ مُحِبُّــوكَ إلــى ظُلْمةِ القَبْرِ وضِيقِ المُضْطَجَعْ[٤٩]

وكان الشاعر كثيراً ما يتطرّق في شعره إلى أن الزمان سيلحقه بأسلافه الذين سبقوه إلى الموت، فيقول مثلاً:

أودى الزمــانُ بأســلافي وخَلّفَنِــي وسوف يُلحِقُني يوماً بأسْلافِي[٥٠]

وذلك لأن الموت سيأتي في ساعة لا يعلمها إلاّ الله سبحانه وتعالى:

ومـا المـوتُ إلا سـاعة غيـر أنّهـا نهــارٌ وليــلٌ بالمنايــا تُســاوِقهْ[٥١]

فالموت يقترب من النفوس أكثر فأكثر مع كلّ يوم جديد يمرّ في حياة الإنسان، وذلك ما عبّر عنه أبو العتاهية قائلاً:

كُــلّ يَــومٍ يَحَــطّ آجالَنَــا الدَّهــ ـرُ ويدنُو إلـى النّفُوسِ الحِمامْ[٥٢]

وفي الوقت الذي يموت فيه الإنسان، ويُدفَنُ في التراب، سيصبح وكأنه لم يكن موجوداً في يوم من الأيام، أي أنّه سَيُنْسَى في نظر أبي العتاهية، ودليله في ذلك هو الناس الذين مضوا سابقاً، وذلك واضح من خلال قوله:

كــم أنــاسٍ كــانوا فــأفْنَتْهُمُ الأيــ ـامُ حتّــى كــأنّهُمْ لــم يكُونَــوا[٥٣]

من ذلك كلّه تبيّن لنا أن فكرة ارتباط الموت بالزمن، كانت قد سيطرت على أبي العتاهية سيطرة بعيدة المدى، فهو كثيراً ما كان يجعل الزمن مسؤولاً عن ذلك الموت، وذلك –حتماً– ليس جهلاً منه، بقدر ما هو الحياء الديني من الخالق جلّ جلاله، أي أنّ سبب نسبة الموت إلى الزمن –وكذلك الأمور السابقة الأُخر– كان من منطلق ديني، فلا أحد من المسلمين –وربما غير المسلمين كذلك– لا يعلم أنّ الله هو الذي يُحيي ويُميت، وربما كان قصد الشاعر –من وراء ذلك– هو الأخذ بظاهر الأشياء من دون الغوص في حقيقة الأمر ، فهو يفهم أنّ دوران الأيام، أو مضيّ السنوات تكون نتيجته في نهاية الأمر تقدّم الإنسان في السنّ، ومن ثم هرمه وموته، لذا نراه يربط الاثنين معاً في أكثر شعره الذي تناول فيه الموت.

إنّ ما سبق كلّه يوضّح لنا سبب تشاؤم أبي العتاهية من الزمن، وفضلاً عن ذلك، فهو يسوّغ لنا أسباب إضفائه الصفات السلبية على الزمن، فانقضاء العمر، وذهاب الشباب، والتبدّل والتغيّر المستمران في حياة الإنسان، ونزول الشيب، ذلك كلّه ممّا كان الزمن مسؤولاً عنه من وجهة نظر الشاعر، فضلاً عن الموت الذي هو خاتمة لتلك الأمور السلبية التي تدور في ذهن الإنسان الاعتيادي، فكيف بالشاعر الذي يتميز عن الآخرين برقّة إحساسه، ودقّة شعوره؟

وبعد أن تحدّث الشاعر عن الزمن بوصفه سبباً مباشراً لدفع الإنسان إلى الموت، لم يبق أمامه إلاّ أنْ يُبدي تعجبه من فعله، بل من أفعاله التي كثيراً ما كانت لا ترضيه، وإنما على العكس من ذلك، تثير سخطه، وتحرّك غضبه، وتجعله يشعر بمأساته، ولاسيما في تذكّر الموت الذي لم يكن يفارق خياله، ولا شعره على حد سواء.

فهو يرى أنّ كلّ ما يجري في حياة الإنسان من أمور يجري فيها القضاء، تحتاج إلى أسباب، ويبقى العجب في الدهر، وفي تصريفه كما يقول:

لكُلّ أمرٍ جرى فيه القضا سَبَبُ والدهرُ فيه وفي تصريفِه عَجَبُ[٥٤]

فالدهر لا تفنى أعاجيبه، وإذا ما فكّر الإنسان فيه، فانه سيجد العجب في كلّ ما كان يفكر، كما يرى أبو العتاهية:

والدهرُ لا تَفْنَى أعاجيبُهُ في كُلّ ما فكّرْتَ فيه عَجَبْ[٥٥]

وعلى ذلك النحو يستمر تعجّب الشاعر من الزمن – بمرادفاته كلّها[٥٦] يتعجب من أفعاله، ومن تحطيمه لأحلام البشر وآمالهم، ومن كلّ ما يتعلق فيه، حتى أنّه يتعجب من ليله ونهاره، لا بل من ساعاته، وذلك في قوله:

يا عَجَباً للّيلِ والنّهارِ لا بل لساعاتِهما القِصارِ[٥٧]

وبعد أن طال تعجب الشاعر من الزمن، لجأ إلى أسلوب جديد في شعره المرتبط بالزمن أيضاً، ألَا وهو أسلوب إثارة التساؤلات، فكثيراً ما لاحظنا أبا العتاهية مثيراً لتساؤلاته المختلفة في أمور متعددة سنأتي على ذكرها تباعاً.

فيوجه تساؤله في بعض شعره إلى أحد أصحابه، طالباً منه الكفّ عن الغواية، ناصحاً له بأن يرعوي؛ وذلك لأن في ذهاب النهار وإقبال الليل عبراً يفيد منها صاحب العقل المدرك لحقائق الأشياء، فيقول:

حتى متى لاترعوي يا صاحبي حتى متى حتى متى والى متى

والليلُ يذهبُ والنهارُ وفيهما عِبَرٌ تَمُرُّ وفِكْرَةٌ لأولي النّهى[٥٨]

ويكرر الشاعر تساؤله نفسه في موضع آخر، ولكن في هذه المرّة ربما يكون الخطاب موجهاً إلى الشاعر نفسه، وذلك ما يُعرف بأسلوب (التجريد) الذي يُوهِمُ فيه الشاعر متلقيه بأنه يخاطب شخصاً ما، في الوقت الذي يوجه فيه الخطاب إلى نفسه، ومن ذلك قوله:

ألَا للّهِ أنت متى تَتُوبُ وقد صَبَغَتْ ذوائبَكَ الخُطُوبُ

كأنّكَ لست تعلمُ أيَّ حَثَ يَحُثّ بكَ الشّروقُ ولا الغُروبُ

ألستَ تَرَاكَ كُلّ صَباحِ يَومٍ تُقابلُ وَجْهَ نائبَةٍ تنُوبُ[٥٩]

وعندما يجلس الشاعر مع نفسه، ويبدأ بتأمّل طبيعة الحياة، فانه يتساءل عن أمور، ربما تدور في مخيلة كلّ إنسان من دون استثناء، لكن الشاعر أثارها وتساءل عنها في شعره، فهو يستفهم عن اليوم الذي تُختتم فيه حياته، ويسأل عن البلاد التي ستُقْبَضُ فيها روحه، وكذلك عن موضع القبر الذي سيُدفَنُ فيه، ذلك كله نجده في قوله:

ليت شِعري فإنّني لستُ أدري أيُّ يومٍ يكونُ آخِرَ عُمْري

وبأيِّ البِلادِ تُقْبَضُ رُوحي وبأيِّ البِقاعِ يُحْفَرُ قَبْري[٦٠]

ولهذا السبب نرى الشاعر يستفهم مستنكراً –في موضع آخر من شعره– عن كيفية اغتراره بالحياة، في الوقت الذي ينقص عمره فيه ساعة بعد ساعة، على حدِّ قوله:

كيفَ أغْتَرُّ بالحياةِ وعُمْري ساعة بعد ساعةٍ في انتِقاصِ[٦١]

والمتأمّل في شعر أبي العتاهية، سيجد أن أكثر التساؤلات التي كان يثيرها متعلقة بالموت واقترابه، ومن ذلك قوله متسائلاً عمَّن لا يسمع خطا الأيّام وهي مقبلة عليه، مطالبة برحيله من الدنيا:

نادتْ بوشْكِ رحيلِكَ الأيّامُ أفلستَ تَسمَعُ أم بكَ اسْتِصمامُ[٦٢]

إنّ تساؤلات الشاعر المرتبطة بالزمن، كانت متعددة الموضوعات، متنوعة الأهداف، ولكن طبيعة البحث تحتم علينا أن نتمثّل ببعض النصوص، ونكتفي بقدر محدود منها[٦٣].

ولعلّ تلك التساؤلات التي أثارها أبو العتاهية في شعره، والتي كان أكثرها يدور حول الموت وعلاقة الزمن به كما ذكرنا، هي التي دعته إلى التعامل مع ألفاظ الزمن تعاملاً دينياً، بمعنى أن ألفاظ الزمن، ولاسيما (اليوم والأيام) كانت ترد في شعره متضمنة لمعان ذات رؤًى دينية، كان القصد من أكثرها هو الاعتبار الذي يجب على كلّ إنسان أن يتحلّى به، فمن ذلك مثلاً، حديثه –في بعض شعره– عن يوم الموت الذي يمرّ على الناس جميعاً، وكذلك يوم الآخرة الذي يؤول فيه الإنسان إلى الجنة، أو إلى النار، فيقول في ذلك:

أيُّ يـــومٍ يـــومُ السِّـــباقِ وإذ أنـــ ـــتَ تُنـــادَى فمـــا تُجِيـــبُ المُنـــادِي

أيُّ يـــومٍ يـــومُ الفِـــراقِ وإذ نَفـــ ســـكَ تَرقَـــى عـــن الحَشـــا والفُـــؤادِ

أيُّ يـــومٍ يـــومُ الفـــراق وإذ أنـــ ـــتَ مِـــنَ النَّـــزْعِ فـــي أشـــدِّ الجِهـــادِ

أيُّ يـــومٍ يـــومُ الصُّـــراخِ وإذ يَلْـــ ـــطِمْنَ حُـــرَّ الوُجـــوهِ والأجيـــادِ

[....]

أيُّ يـــومٍ نَسِـــيْتَ يـــومَ التّلاقـــي أيُّ يـــومٍ نَسِـــيْتَ يـــومَ التَّنـــادِ

أيُّ يـومٍ يـومُ الوُقـوفِ إلـى اللّـ ـــهِ ويـــومُ الحِســـابِ والإشْـــهادِ

أيُّ يـومٍ يـومُ المَمَـرِّ علـى النّـا رِ وأهوالِهـــا العِظـــامِ الشِّـــدادِ

أيُّ يـومٍ يـومُ الخـلاصِ مـن النّـا رِ وهـــولِ العَـــذابِ والأصْـــفادِ[٦٤]

إنّ تكرار الشاعر للفظة (اليوم) بهذا الحجم الكبير، يدلّ من جانب أو آخر على إلحاح ذلك اليوم على فكره وعقله، وأعني يوم الوفاة، فضلاً عن يوم الآخرة، وعلى الرغم من أنّ الصور في هذه الأبيات يبدو عليها التكرار، إلّا أنها كانت تهدف –عند الشاعر– إلى العِبرة والتذكير.

ولذلك السبب يعمد أبو العتاهية –في موضع آخر من شعره– إلى النصح، طالباً من الآخرين أن يجتهدوا في دنياهم، وأن يستعدوا إلى ذلك اليوم؛ لأن متاع الدنيا معار، ولابدّ أن يُستَرَدّ في يوم من الأيّام:

جِـــدّوا فـــإنّ الأمـــرَ جِـــدُّ ولـــــهُ أعِـــــدُّوا واســـــتَعِدُّوا

[...]

مـــا نحـــنُ فيـــه مَتـــاعُ أيـــ ـــامٍ تُعـــــارُ وتُسْـــــتَرَدُّ[٦٥]

وفكرة الإعارة هذه، تتكرر في شعر أبي العتاهية، إذ كان كثيراً ما يرددها حين يتحدث عن الزمن وما يفعله بالناس من خلال مسيرته، وهو في أثناء ذلك كلّه يتمثّل بأدلة من أجل إقناع الآخرين، ولفت انتباههم لصحة ما يقول، ففي بعض شعره يدعو إلى عدم الاطمئنان إلى الدهر، لأنّ له في كل يوم عثرة، تكون نتيجتها إحداث الأذى بالآخرين، فلا بدّ –إذن– أن يعلم الإنسان بأن الدنيا فانية، وأن الموت قادم في أحد الأيّام:

إنّ داراً نحـــنُ فيهـــا لَـــدَارُ لـــيس فيهـــا لمُقـــيمٍ قـــرارُ

كـم وكـم قـد حَلّهـا مـن أنـاسٍ ذهـــب الليـــلُ بهـــمْ والنهـــارُ

أي يـــومٍ تـــأمَنُ الـــدَّهرَ فيـــهِ ولـــه فـــي كـــلّ يـــومٍ عِثـــارُ

[...]

فـــاعْلَمَنْ واسْـــتَيْقِنَنْ أنّـــه لا بُـــدَّ يومـــاً أن يُـــرَدَّ المُعـــارُ[٦٦]

لقد كَثُرَتْ في شعر أبي العتاهية المضامين الدينية من خلال ألفاظ الزمن[٦٧] كثرة تجعلنا نعتقد أنه كان يخاف الآخرة كثيراً، فضلاً عن خوفه من الموت وما يتبعه بعد ذلك من الحساب، ولكنه في أحد نصوصه يضع ثقته بالله سبحانه وتعالى، فيرى –كما يرى المسلمون جميعاً– أنّ سائل الله لا يخيب أبداً، وذلك في قوله:

انقطــاعُ الأيّــامِ عنّــي سَــرِيعُ إنّ مـــا عِنـــدَ اللهِ لـــيسَ يَضـــيعُ

[....]

سـائِلُ اللّـهِ لا يخيـبُ وجـارُ اللّـ ـــهِ مــن كُــلّ يــومِ بــؤسٍ مَنِيــعُ[٦٨]

وكان يوم القيامة جزءاً رئيساً من رؤى الشاعر الدينية، فقد خصَّص له مساحة كبيرة من شعره للحديث عنه، متناولاً له من جوانبه المتعددة، باثاً فيه مشاعره تجاهه، مسمّياً له تارة يوم القيامة ، وتارة أخرى يوم الحساب كما سنرى.

إنّ جزءاً مما طرحه الشاعر في رؤاه فيما يتعلق بيوم القيامة، كان يتحدث فيه عن العواقب الايجابية التي تنال الصابرين الذين كفّوا أنفسهم عن إتباع الشهوات والرغبات الزائلة، فذلك اليوم هو يومهم المشهود الذي سيكرمهم فيه الله سبحانه وتعالى لحسن أعمالهم:

يــومَ مَعَــادكَ أفضــلَ الــذكْرِ لا تــنسَ يــومَ صــبيحة الحَشْــرِ

يــومَ الكرامــةِ لِلألَــى صَــبَرُوا والخيــرُ عنــدَ عواقِــبِ الصَّــبْرِ[٦٩]

وفي هذا اليوم يُنادَى مَن في القبور للحساب، وفيه توفّى كلّ نفس بما عملت، فمَن زرعَ شرًّا حصد شرًّا ، ومَن زرع خيراً حصد خيراً:

غداً يُنـادَى مَـنْ فـي القَبُـورِ إلـى هــولِ حِســابٍ عليــه يجتمــعُ

غـداً تُـوَفى النّفـوسُ مـا كَسَـبَتْ ويحصُــدُ الزارِعــونَ مــا زَرَعــوا[٧٠]

وربما يكون وراء تسمية الشاعر ليوم القيامة بلفظة (غداً) دلالة عميقة، يرمي الشاعر بوساطتها إلى الإشارة لقرب ذلك اليوم، ولاسيما أنه كرّر التسمية ذاتها (غداً) في البيت التالي، ليس ذلك فحسب، بل نجده يردّدها مرّة ثالثة في نص آخر يقول فيه:

أيا نَفْسُ كم لي مِنكِ من يومِ صَرْعَةٍ إلــى اللّــهِ أشــكُو مــا أعالِجُــهُ مِنّــكِ

أيــا نَفْــسُ إنْ لــم أبــكِ مِمَّــا أخافــهُ عَليكِ غداً يـومَ الحسابِ فمَـنْ يبكـي[٧١]

وأبو العتاهية لا يكتفي بالحديث عن خوفه من يوم القيامة فحسب، بل نراه مصوّراً له تصويراً شاملاً، متأثراً في ذلك التصوير بالقرآن الكريم، ويتلخّص ذلك التصوير بإعطاء يوم القيامة صورة مرعبة، ربما كان قصد الشاعر منها بثّ الفزع في نفوس المتلقين، ليدركوا أخطاءهم مادام الوقت في صالحهم، وليتجنبوا تلك الأهوال وذلك العذاب:

للّــهِ يــومٌ تقشَــعِرُّ جُلــودُهُمْ وتَشــيبُ منــهُ ذوائِــبُ الأطفــالِ

يــومُ النــوازِلِ والــزلازِلِ والحــوا مِــــلِ إذ يَقْــــذِفْنَ بالأحمــــالِ

يــومُ التغــابُنِ والتبــايُنِ والتّــوا زُنِ والأمــــورِ عظيمــــةِ الأهــــوالِ

يــومٌ يُنــادَى فيــه كُــلّ مُضَــلَلٍ بمُقَطّعــــاتِ النــــارِ والأغْــــلالِ[٧٢]

وتتكرر الصورة ذاتها في نصّ آخر، يقول فيه الشاعر مصوّراً يوم القيامة، ومثيراً استغرابه ممّن ينسى يوم الحساب:

وَيْــحَ ابــنِ آدَمَ كيــفَ تَغْفَــلُ نفسُــهُ ولــــهُ بيــــومِ حســــابِهِ اســــتِيقانُ

يومِ انشِقاقِ الأرضِ عن أهلِ البِلَى فيهــا ويبــدُو السُّــخْطَ والرِّضــوانُ

يــوم القيامــةِ يــومَ يُظْلِــمُ فيــه ظَلّــ ــمُ الظــالمينَ ويُشْــرقُ الإحســانُ[٧٣]

وبما أنّ يوم القيامة مرعب إلى هذه الدرجة بالنسبة إلى غير الملتزمين بمبادئ الدين الاسلامي وأوامره ونواهيه، فلا بد للإنسان أنْ يحذر ذلك اليوم من خلال طاعته لله جَلَّ وعلا، والتمسّك بتعاليمه التي لاشكّ أنها ستجنبه هول ذلك اليوم:

أنّ يــومَ الحســابِ يــومٌ عَسِــيرُ لـــيس للظـــالمينَ فيـــه نَصـــيُر

فاتّخِـــذ عُـــدَّةً لِمُطْلَـــعِ القَبـــْ ـــرِ وهَـــوْلِ الصِّـــرَاطِ يـــا منصـــورُ[٧٤]

ونختم الحديث فيما يتعلق بيوم القيامة ببيتين لأبي العتاهية، يحاول فيهما أن يفرّق بين مَن عمل صالحاً ومَن لم يعمل، من خلال التضاد الحاصل بين لفظتي (الغبطة والحسرة) اللتين تعتريان نفوس البشر في يوم الحساب:

نَعْمُـــرُ الـــدنيا ومـــا الدُّنـــ يـــــا لنـــــا دارُ إقامَـــــةْ

إنّمـــا الغِبْطَـــةُ والحَسْـــر ـــرَةُ فـــي يـــومِ القيامَـــةْ[٧٥]

إذن، ومن خلال ما سبق، لاحظنا كيف أنّ أبا العتاهية أولى يوم القيامة اهتماماً كثيراً في شعره، والذي شكّل حيّزاً كبيراً من مساحة توجهاته أو رؤاه الدينية، التي كانت تدعو بشكل أو بآخر إلى إتباع الطريق الصحيحة تجنباً للنار، وضماناً لدخول الجنة[٧٦] .

وفيما عدا ذلك، فقد أنتج أبو العتاهية شعراً يتصف بالحكمة، وكان الزمن من أهم أسباب إنتاج تلك الحكمة في شعره، ومن الأشياء التي غدت معروفة، ولا سبيل إلى تكرارها، هو أن الحكمة إفراز طبيعي لتجربة الإنسان في الحياة، وأفادته مما رأى وسمع في تلك الحياة، وبالتالي فان الشاعر سيعكس تجاربه على شكل حكم مؤثرة فيهم تأثيراً متفاوتاً بحسب القضايا المطروحة فيها.

إنّ أوّل ما نجده من حكم في شعر أبي العتاهية، هو اتجاهه بشكل مباشر إلى المتلقي، طالباً منه أن يتواضع في تعامله مع الآخرين، مذكّراً إيّاه بأنه قد خُلِقَ من طين وماء، وذلك لأن الزمن إن كان متصالحاً معه اليوم، فانه ربما لا يكون كذلك في الغد، فأيّام الفتى ليست بسواء على حدِّ قول الشاعر:

فـلا تَمْشِ يومـاَ فـي ثِيـابِ مَخيلَـةٍ فإنّـكَ مِـــن طـــينٍ خُلِـــقْتَ ومـــاءِ

[....]

ومـا الدهرُ يومـاَ واحداَ فـي اختلافِـهِ ومـــا كـــلّ أيّـــامِ الفتـــى بسَـــواءِ

ومـــا هـــو إلّا يـــومُ بُـــؤسٍ وشِـــدَّةٍ ويـــومُ سُـــرورٍ مَـــرَّةً ورخـــاءِ[٧٧]

وبما أنّ الدهر متقلب الطبع، مختلف التصرّف مع البشر، فخير ما يصنع الإنسان فيه هو عمل الخير، لأنه وحده الكفيل بضمان تحقق الهدف المنشود بعد ذهاب الإنسان من هذه الدنيا، فاصطناع الخير هو الذي يبقى من أعمال الإنسان، ولاشيء سواه:

خيـــرُ أيّـــامِ الفتـــى يـــومَ نَفَـــعْ واصـــطِناعُ الخيـــرِ أبقـــى مـــا صَـــنَعْ

[...]

لـــيس كـــلّ الـــدهرِ يومـــاَ واحـــداَ ربّمـــا ضـــاقَ الفتـــى ثـــمّ اتّسَـــعْ[٧٨]

ومرَّ بنا كيف أنّ الشاعر أولى الموت اهتماماً كبيراً في شعره، إذ عبَّرَ عنه من الوجوه المختلفة، عبَّر عن سرعة مجيئه، وعن خوف الإنسان منه، وحذّر من قدومه، وما إلى ذلك ممّا تحدثنا عنه فيما مضى، ولكننا في هذه المناسبة نشير إلى أن أبا العتاهية أفاد من الموت في إفراز الحكم المؤثرة التي كوّنها في فكره، وسطّرها في شعره بمعنى أنّ حكماً متعلقة بالموت فقط وردت في شعره، ومن ذلك قوله منبّهاً إلى كثرة الأموات، مشيراً إلى سرعة قدوم الموت:

إنْ كنتَ تطمَعُ في الحياةِ فهَاتِ كـــم مـــن أبٍ صـــارَ فـــي الأمْـــواتِ

ما أقربَ الشيءَ الجديدَ مِنَ البِلَى يومـــاَ وأسْـــرَعَ كـــلّ مـــا هـــو آتِ[٧٩]

ونجد الشاعر مخاطباً مَنْ سيُقبِل عليه الموت عمّا قريب، باثًّا له حكمته الي تفيد بأنه مع كلّ ارتداد طرف عين للإنسان، فإنّ شيئًا يموت من جسده:

يـــا أيُّهـــذا الـــذي سَـــتَنْقَلُهُ الـــ أيّـــامُ عـــن أهْلِـــهِ وعـــن وَلَـــدِهْ

مـــا ارتَـــدَّ طَـــرْفُ امـــرِئٍ بَلَحْظَتِـــهِ إلّا وشـــيءٌ يمـــوتُ مـــن جَسَـــدِهْ[٨٠]

وربما تكون من أجمل الحكم المرتبطة بالموت والزمن، هي تلك الحكمة التي خاطب فيها الشاعر كلَّ واحدٍ منّا، والتي رأى فيها أنّ كلّ شخص شَيَّعَ جنازة يوماً، فان جنازته ستُشَيَّعُ في يوم آخر:

ومـــا هُـــوَ إلّا المـــوتُ يـــأتي لوقتِـــهِ فمالَـــكَ فـــي تـــأخِيرِهِ عنـــكَ مَـــدْفعُ

ألَا وإذا وُدِّعْـــتَ تَودِيـــعَ هالِـــكٍ فـــآخِرُ يـــومٍ منـــكَ يـــومُ تُـــوَدَّعُ

ألَا وكمـــا شَـــيَّعْتَ يومـــاَ جنـــائِزاَ فأنـــت كمـــا شَـــيَّعْتَهُمْ سَتُشَـــيَّعُ[٨١]

ولعلّ الشاعر لم يتوصّل إلى تكوين هذه الفكرة المؤثرة في المتلقين، إلّا بسبب إدراكه الكامل من دون أدنى شك، في أن كلّ إنسان لابد أن يرحل في يوم من الأيّام إلى قبره، وبالفعل فقد طرح الشاعر هذا الإدراك في نصّ شعري آخر، أقلّ ما يمكن أن يُقال عنه إنه نصّ حكمي متميز من حيث الموضوع والغاية، وفيه يقول:

وللـــدهرِ ألـــوانٌ تـــروحُ وتغتـــدي وإنّ نُفوســـــاَ بيـــــنهُنَّ تَســـــيلُ

ومَنـــزِلِ حَـــقٌ لا مُعَـــرَّجَ دُوْنَـــهُ لكـــلّ امـــرِئٍ يومـــاَ إليـــه رَحِيـــلُ[٨٢]

وهذه الأمور التي طرحها الشاعر على شكل حكم في شعره، وإن كانت من الأُمور المعروفة لدى الجميع، إلّا أنه أكسبها شيئاً من التأثير في نفوس المتلقين بفضل القالب الشعري الذي احتواها، وكذلك بفضل الصياغة التي تميّز بها أبو العتاهية، والذي كان يرى في حكمة شعرية أخرى له فيما يتعلّق بالموت وعلاقة الزمن به، كلّ يوم يمرّ على الإنسان يقرّبه من أجله، قائلاً:

تَظَـــلّ تفـــرحُ بالأيّـــامِ تَقْطَعُهـــا وكُـــلّ يـــومٍ مَضَـــى يُـــدْني مِـــنَ الأجَـــلِ[٨٣]

إذن كان الزمن سبباً رئيساً في إنتاج الحكمة لدى أبي العتاهية كما رأينا ، تلك الحكمة التي كان الموت البطل الرئيس في حكاياتها .

ولم يقتصر تفاعل أبي العتاهية مع ألفاظ الزمن على ما مضى فحسب، بل نجده –أيضاً– يتقدّم بنصائحه بشكل مباشر إلى المتلقين، وقد تميّز تقديمه لتلك النصائح بالخطابية المباشرة، ويبدو أن ذلك أمرٌ طبيعي، كونه يتجّه مباشرة إلى المخاطبين، ويتحدّث إليهم من دون أيّ حجاب كما سيأتي تفصيل ذلك.

ولعلّ من المفيد أن نشير هنا إلى أنّ جزءاً من تلك النصائح، ربما لم يقله الشاعر لمتلقٍّ بعينه، وإنما قد يكون أراد بها نفسه هو، وسواء أكانت تلك النصائح موجهة إلى المتلقي أم إلى نفسه، فإنها في المحصّلة الأخيرة نصائح أراد بها الشاعر الحديث عن بعض الأمور المرتبطة بالزمن وتقديمها بأسلوب مباشر يتسم بأخذ العِبرة، والإفادة منها.

ومن تلك النصائح، قوله طالباً من المتلقي عدم الشعور بالأمان من الزمن، ومحذّراً إيّاه من ذلك؛ لأن الزمن طُبعَ على الانقلاب والتغيير:

إيّـــاكَ أنْ تـــأمَنَ الزمـــانَ فمـــا زالَ علينـــــا الزمـــــانُ يَنْقَلِـــــبُ[٨٤]

ومنها ما يطلب فيه الشاعر من المخاطب عدم الاغترار بالدنيا؛ لأنها لا تطيب لساكنيها، ولا تصفو أبداً:

وللـــدهرِ شَـــدَّ علـــى أهلِـــهِ فبَـــيْنٌ مُشِـــتٌّ ونَبْـــلٌ مُصـــيبُ

[....]

أراكَ لـــــدُنياكَ مُســـــتَوطِناً أَلَـــمْ تَـــدْرِ أنّـــكَ فيهـــا غريـــبُ

أغـــرَّكَ منهـــا نهـــارٌ يُضِـــيءُ ولَيـــلٌ يَجُـــنُّ وشَـــمْسٌ تَغيـــبُ

فـــلا تَحْسَـــبِ الـــدارَ دارَ الغُـــرو رِ تصـــفو لِســـاكِنِها أو تَطيـــبُ[٨٥]

وبما أن الدنيا هي دار الغرور، ولا تدوم لأحد، فعلى الإنسان أن يُقلّل من شهواته ورغباته فيها، وأن يكون دخوله فيها كخروجه منها إلى القبر، وذلك ما عبّر عنه الشاعر بقوله:

تَبَلّغ مِنَ الدنيا ونَلْ من كَفافِها ولا تَعْتَقِـــدْها فـــي ضَـــميرٍ ولا يَـــدِ

وكُـنْ داخِـلاً فيهـا كأنّـكَ خـارِجٌ إلـى غيرهـا منهـا مـن اليـومِ أو غَـدِ[٨٦]

ولاشكّ في أنّ هذه النصائح تحتوي على فكر فلسفي مبدع من لدن أبي العتاهية، فهي ذات صياغة عالية التأثير في المتلقين كما يبدو لي، وربما تساعد مَنْ ضل طريق الحق، وتهديه في العدول عن الضلالة إلى طريق الحق الإلهي، ولاسيما أن الموت مما لا خلاص منه، كما يقول الشاعر في إحدى نصائحه:

إيّـاك أعنـي يـابْنَ آدَمَ فاسـتَمِعْ ودَع الرُّكـــونَ إلـــى الحيـــاةِ فتَنْتَفِـــعْ

لـو كـان عُمْـرُكَ ألـفَ حـولٍ كامِـلٍ لـــم تَـــذهَبِ الأيّـــامُ حتـــى تَنْقَطِـــعْ[٨٧]

لذا عليك يا ابن آدم أن تدخل في سباق كبير من أجل فعل كلّ ما هو خير لك وللناس، ولا تَفُتْكَ أيّة فرصة للقيام بذلك، فما أضعته بالأمس، لا يجدر بك أنْ تضيعه اليوم:

لا يفوتَنّـــكَ فـــي يـــو مِـــكَ مـــا فـــاتَ بأمْسِـــكْ[٨٨]

وكذلك عليك أن تحذر الأيّام؛ لأنها لا يمكن أن تتركك على ما أنت عليه، بل لابدّ من أن تتلقى منها ما تلقّاه مَنْ سبقك:

واحـذرْ فلسـتَ مِـنَ الأيّـامِ مُنْفَلِتًـا حتـــى تَغولَـــكَ مِـــن أيّامِـــكَ الغَـــولُ[٨٦]

كما عليك أنْ تتذكّر أنّك في يوم من الأيّام ستموت، فلا تتأمّل البقاء في هذه الدنيا، ولهذا يجب عليك أنْ تجعل ساعة الأجل في مخيّلتكَ دوماً، وأمام فكرك:

امْهَدْ لنفسِكَ واذكُرْ ساعَةَ الأجَلِ ولا تُغَـــرَّنَّ فـــي دُنيـــاكَ بالأمَـــلِ[٦٠]

إنّ ممّا يمكن أن نلاحظه في جزء غير قليل من تلك النصائح، هو لجوء الشاعر إلى استخدام أفعال الأمر في تقديمها إلى المتلقين، فضلاً عن أسلوب النهي، وكأنه –بذلك– خطيب يعتلي المنبر، ويقدّم مواعظه إلى الآخرين، ويبدو لي ذلك أمراً اعتيادياً في مثل هذا النوع من الشعر، فالشاعر يريد تقديم نصائحه للآخرين، لذا فأيّ أسلوب يفيده في ذلك؟ حتماً سيكون أسلوب الأمر، وأسلوب النهي أيضاً.

وأبو العتاهية في بعض نصائحه لا ينسى أن يدعو الناس إلى عدم ارتكاب المعاصي، لأن الشهوة وطلب اللذة تكون مدّتها قصيرة قياساً إلى الندم الذي يشعر به مرتكبها فيما بعد من ناحية الزمن، فتورثه تلك الشهوة الزائلة حزناً طويلاً لا يزول كما يقول الشاعر، طالباً الخوف من الله سبحانه وتعالى، فيما لو أراد العبد ارتكاب مثل تلك المعاصي:

يـارُبَّ شَـهْوَةِ سـاعَةٍ قـد أعْقَبَـتْ مَـــنْ نالَهـــا حُزْنًـــا هنـــاك طـــويلا

[....]

وخَـــفِ الإلـــهَ فإنّـــهُ لـــكَ نـــاظِرٌ وكفـــى بربِّـــكَ زاجِـــراً وسَـــئولا [كـــذا]

مـــاذا تقـــول غـــداً إذا لا قيتَـــهُ بصـــغائرٍ وكبـــائرٍ مَســـئولا [كـــذا](٩١)

وبذلك تمكّن الشاعر من الإفادة من ألفاظ الزمن في توجيه النصائح إلى جمهور المتلقين، وعلمنا بأنّ تلك النصائح احتوت على أسلوب مباشر في الحديث، بمعنى أنّها كانت خطابية مباشرة، وقلنا إن سبب ذلك هو طبيعة هذا الفن الشعري الذي لا يمكن الاستغناء فيه عن هذه الخطابية التي اتسمت –في أكثرها– بوجود أفعال الأمر، وأسلوب النهي في التقديم والمخاطبة(٩٢).

ولم يستثمر الشاعر ألفاظ الزمن فيما تمّ الحديث عنه فحسب، بل أفاد منها في موضوعات أُخر، غير أنّها أقلّ –من ناحية الكم– من الأمور التي طرحها في شعره سابقاً، والتي تطرقنا إليها آنفاً.

ففي غرض المدح –مثلاً– استخدم أبو العتاهية ألفاظ الزمن، وسخّرها لخدمة الموضوع الذي يتحدّث فيه، والذي عادة ما يكون مدحاً لخليفة أو صديق له، ففي مدحه للخليفة المهدي، يبالغ كثيراً فيرى أنّ الريح إذا أرادت في يوم ما أن تنافس الخليفة في كرمه، فإنها ستكون مقصّرة فيما فعلت أو ستفعل:

ولَـــوَ انَّ الـــرِّيحَ بارَتْـــكَ يومـــاَ فـــي سَـــماحٍ قصَّـــرَتْ عـــن نَـــدَاكا(٩٣)

أمّا في مدحه للخليفة الأمين، فنراه يدّعي –مبالغاً أيضاً– بأنّ اليوم الذي يراه فيه لهو يوم طلعت شمسه بسعد السعود على حدِّ قوله:

إنّ يومـــاَ أراكَ فيـــه ليـــومٌ طَلَعَـــتْ شمسُـــهُ بَســـعْدِ السُّـــعودِ(٩٤)

وله يمدح صديقاً، مشيداً بكرمه الذي لا ينقطع ساعة، سواء أكان في اليُسر، أم في العُسر، ويرى أنّ مثل هذا الممدوح يظلّ المرء في خيره نهاراً ويأمن شرّه ليلاً، قائلاً في ذلك:

فتىً لـمْ يُخَلّ النّدى [كذا] ساعة علـــى يُسْـــرِهِ كـــانَ أو عُسْـــرِهِ

تظـــلّ نهـــارَكَ فـــي خَيـــرِهِ وتـــأمَنُ ليلَـــكَ مـــن شَـــرِّهِ(٩٥)

وكما أفاد الشاعر من ألفاظ الزمن في غرض المدح، أفاد منها في استنجاز الحاجات، ومن ذلك إفادته من لفظة (الغد) التي كرّرها ثلاث مرّات في بيت واحد، تلميحاً منه لقضاء مطلبه الذي أخّره عنه الخليفة الرشيد، فيقول في ذلك:

كـــم أمَنّـــى بغـــدٍ بعـــدَ غـــدٍ يَنْفَـدُ العُمْـرُ ولـم ألْـقَ غَـدا(٩٦)

وله في موضع آخر في الافادة من اللفظة نفسها (الغد)، فضلاً عن لفظة (الزمان)، يلمّح بعدم الايفاء بحاجته، داعياً على المُسَوِّف ألّاتكون عنده حاجة له أبداً:

أكُـلّ طـولِ الزمـانِ أنـتَ إذا جِئْتُـكَ فـي حاجـةٍ تقـولُ غَـدا

لا جَعَـــلَ اللّـــهُ إليـــكَ ولا عِنـدَكَ مـا عِشْـتُ حاجَـةَ أبـدا(٩٧)

وكان الاستعطاف واحداً من الموضوعات الأُخر التي استثمر فيها الشاعر ألفاظ الزمن، ومن ذلك ماكتبه إلى الخليفة الرشيد حين حبسه، قائلاً له:

أنـا اليـومَ لـي والحمـدُ لِلّـهِ أشْـهُرُ يَـرُوحُ عَلَـيَّ الهَـمُّ مِـنْكمْ ويَبْكُـرُ(٩٨)

وبعد هذا البيت – الذي استخدم فيه الشاعر لفظتين من ألفاظ الزمن هما (اليوم ، والأشهر) – نظم ثلاثة أبيات أُخر، حاول فيها أن ينال عطف الرشيد ليخرجه من سجنه .

واستثمر الشاعر لفظة (الأمس) بدلالة التهنئة والتعزية، أمّا التهنئة فللخليفة الأمين حين نُصِّبَ خليفة بعد وفاة أبيه الرشيد، وأمّا التعزية فلوفاة الرشيد:

العـــينُ تبكـــي والسِّـــنُّ ضـــاحِكَةٌ فـــنحنُ فـــي مـــأتَمٍ وفـــي عُـــرْسِ

يُضْـحِكُنا القـائِمُ الأمـينُ وتَبْـ ـكِينا وفـاةُ الإمـامِ بـالأمْسِ[٩٩]

كما استثمر لفظة (اليوم) بدلالة الحلم والمسامحة ، مشيراً إلى مكارم الأخلاق، التي على المرء أن يتحلّى بها، متناسياً غضبه، ملتمساً الأعذار للمخطئين معه، فيقول :

ذو الحِلـمِ فـي جَنّـةٍ تَـرُدُّ سِـها مَ الجَهْـلِ عنـهُ إنْ جاهِـلٌ جَهِـلا

يَلْـتَمِسُ العُـذرَ للصّـديقِ وإنْ أتـاهُ يومـاً بعُـذرِهِ قـبِلا[١٠٠]

وتعدّى الأمر بأبي العتاهية إلى الافادة من ألفاظ الزمن في غرض الغزل أيضاً ، فهو يتغزّل بمحبوبته (عتبة) غزلاً جميلاً ، ذاكراً لفظة (الشهر) في بيت يتحدث فيه عن تأخير جوابها عنه ، قائلاً :

ليتَ شِعري ما عِندَكُم ليتَ شِعري فلقـد أخّـرَ الجَـوابُ لأمْـرِ

مـا جَـوابٌ أوْلـى بكُـلّ جميـلٍ مِن جَوابٍ يُرَدُّ مِن بعدِ شَهْرِ[١٠١]

ويستثمر أبو العتاهية الزمن بألفاظه المختلفة في شعره ،وهذه المرّة مع الشكوى الناتجة – أصلاً– عن حبّه لعتبة، فهو يأتي بألفاظ (الليل، والصبح، واليوم) بوصفها أدلة أكيدة على ما يعانيه من ذلك الحبّ، وفي الوقت نفسه، دلالة على حزنه وسهره الطويلين، حتى أنّ ليله يغدو أطول من يوم الحساب على حدٍّ تعبيره:

يـارُبَّ ليـلٍ طويـلٍ بـتُّ أرقبُـهُ حتى أضاءَ عَمودُ الصُبحِ فانفجرا

ماكُنـتُ أحْسِـبُ إلّ◌امُـذ عَـرَفتُكُمُ أنَّ المَضـاجِعَ مِمَّـا تُنْبِـتُ الإبَـرا

والليلُ أطوَلُ من يومِ الحسابِ على عينِ الشّجِيِّ إذا ما نَوْمُـهُ نَفَرَا[١٠٢]

غير أنّ (عتبة) لا تُعيره اهتماماً ، ممّا يدعوه إلى التصعيد من شكواه بسبب عدم وصلها له، إلى الدرجة التي يعلن فيها بأنه سيموت من ساعته، إذ يقول:

ألاَ ياعُتْبَـــــةَ السَّـــــاعَهْ أمــوتُ السَّــاعَةَ السَّــاعَهْ[١٠٣]

نخلص من ذلك كلّه إلى أنّ أبا العتاهية قد أفاد من ألفاظ الزمن ، وسخّرها في شعره في أغراض ومعانٍ شعرية أُخَر غير الأمور التي فصّلنا القول فيها ، ومن تلك الأغراض والمعاني : المدح والغزل واستنجاز الحاجات والاستعطاف والتهنئة والتعزية والحلم والمسامحة كما رأينا.

أمّا الآن وقد انتهينا من دراسة ألفاظ الزمن ودلالاتها في شعر أبي العتاهية ، لا ننسى الإشارة إلى بعض الأمور الفنية التي أفاد منها الشاعر في شعره الزمني إنْ صَحَّ التعبير ، فقد أكثر أبو العتاهية من استثمار فَنَّي الجناس والطباق في نصوصه الشعرية التي حَشَّدَ فيها ألفاظ الزمن ، وكان الجناس والطباق في الفاظ الزمن حصراً من دون غيرها.

ففيما يتعلّق بالجناس ، لاحظنا اكثار الشاعر من تسخيره خدمة لشعره[١٠٤]، فمن أبياته التي يُكثِرُ فيها من هذا الفن قوله مجنّسًا بين لفظتي (غداً، وغد)، وكذلك بين لفظتي (يوم، ويومك):

قـد أرى أنْ لَسْـتُ فـي الـدُنيا ولَـوْ بَقِيَـتْ لـي دائِمـاً طـولَ الأبَـدْ

إنّني منها غداً مُرْتَحِـلٌ أوْ أرانى راحِلاً مِن بعدِ غـدْ

[....]

إنّمـا دُنْيـاكَ يـومٌ واحِـدٌ فـإذا يومُـكَ وَلّـى لـم يَعُـدْ[١٠٥]

ويجنّس أيضاً بين الفاظ (الأيام ،ويومين) و (يوم ، واليومين) على التوالي ، في قوله:

حتى متى نحنُ في الأيّامِ نَحْسُبُها وإنّمـا نحـنُ فيهـا بـينَ يَـومَيْنِ

يـومٍ تَـوَلّى ويـومٍ نحـنُ نأمُلُـهُ لعَلّـهُ أجْلَـبُ اليـومَينِ لِلْحَـيْنِ[١٠٦]

ومن جناساته الأُخر، ما يجمع فيه بين لفظتي (الساعات ، وساعة) ، وذلك في قوله:

وللمَرْءِ عندَ الموتِ كَرْبٌ وغصَّة إذا مَرَّتِ الساعاتُ قَرَّبْنَ بُعْدَها

[....]

سَتُسْلِمُكَ الساعاتُ في بعض مَرِّها إلى ساعةٍ لاساعة لك بَعْدَها[١٠٧]

وله – كذلك – مجنّسًا بين (الشهر ، والأشهر) في البيت الذي يقول فيه:

ما أسْرَعَ الأيّامَ في الشّهْرِ وأسْرَعَ الأشْهُرَ في العُمْرِ[١٠٨]

وربما كان إلحاح الشاعر في تفكيره بالزمن ، ومن ثمّ تسجيل ذلك الإلحاح في شعره ، هو الذي دعاه إلى الإكثار من التجنيس بين ألفاظ الزمن ، فتلك الألفاظ معدودة في حسابها ، وبالتالي فهي ستكرر نفسها، أو سيكررها الشاعر بتصريفاتها واشتقاقاتها المختلفة ، وبذلك نعرف سِرَّ الإكثار من هذا الفن في شعر أبي العتاهية ، فضلاً عن حرصه على اضفاء جوٍّمن البلاغة على فنه الشعري.

وأمّا فيما يخصّ الطباق بوصفه فنًّا بد يعيًّا ، فقد أكثر الشاعر منه كثرة لا تقلُّ عن كثرة استخدامه لفن الجناس، ويَبدو لنا أنّ السبب معروف ، فالزمن قائم – أصلاً – على التضاد، فكلّ لفظة من ألفاظه يقابلها ضدّها ، فالليل يقابل النهار، والغد يقابل الأمس ، وما إلى ذلك من ألفاظ الزمن الأُخر ، لذا فعندما أكثر الشاعر من طباقاته بين ألفاظ الزمن، بدا لنا أمراً اعتيادياً ، لطبيعة الزمن ذاته من ناحية ، ولافتتان الشاعر نفسه بمثل هذا الفن الجميل من ناحية أخرى[١٠٩].

ومن طباقاته التي كثيراً ما كان يكررها في شعره ، قوله مطابقاً بين (الليل ، والنهار):

نرى اللّيلَ يَطْلُبُنا والنهارَ ولم نَدْرِ أيُّهُما أطْلَبُ[١١٠]

وقوله – أيضاً – مطابقاً بينهما في موضع آخر:

اللّيلُ يعملُ والنهارُ ونحنُ عَمْ مَا يعملانِ بأغفَلِ الغَفَلاتِ[١١١]

وفي الوقت الذي يريد فيه الشاعر الإشارة إلى سرعة الزمن وسعيه لإنهاء حياة الإنسان ، نجده يطابق بين (الليل، والنهار) أيضاً ، فيقول:

أفٌ للدُّنيا فليستْ لي بِدارْ إنّما الراحَةُ في دارِ القَرَارْ

أبَتِ الساعاتُ إلّا سُرْعَة في بِلَى جِسْمي بليلٍ ونهارْ[١١٢]

وقد يُطابق بين (الصبح ، والليل) في بعض الأحيان ، كقوله:

والصُّبْحُ يُغْبَنُ فيه لاعِبُهُ واللّيلُ يُغْبَنُ فيه نائِمُهُ[١١٣]

ونراه يطابق بين (اليوم، والأمس) في قوله:

لايُسْتَقَالُ اليومُ إنْ وَلَى ولا للأمْسِ رَدُّ[١١٤]

ومن الجدير بالذكر إنّ صور الشاعر لا تقتصر على استخدام الجناس والطباق في شعره المرتبط بالزمن فحسب، وإنّما تكثُرُ في شعره – أيضاً– الصور الزمنية الجميلة القائمة – أساساً – على التشبيه والاستعارة في أكثر الأحيان، والتي عَبَّر فيها الشاعر عمّا يدور في أذهان الناس ، فأثّر – بوساطتها – في المتلقين من جهة ، ونال اعجابهم من جهة أخرى .

ومن صوره النادرة والجميلة في الآن نفسه، قوله معتمداً ظاهرة التشخيص[١١٥] ، التي استطاع من خلالها اضفاء (الخطا) إلى الزمن ، وجعله كثير العثرات:

ياذا الذي اتخَذ الزمانَ مَطِيَّة وخُطا الزمانِ كثيرةَ العَثَراتِ[١١٦]

وفي صورة جميلة أخرى، يعتمد فيها الشاعر التشبيه بالدرجة الأساس ، عادًّا فيها رحلة الإنسان في هذه الدنيا كالقيام بسفرة قصيرة ، يستريح فيها المسافرون بجانب الفيء، ثم يتفرّقون ، وفيها يقول:

مـا نحـنُ إلا كَرَكْـبٍ ضَـمَّهُ سَـفَرٌ يومـاً إلـى ظِـلَ فـيْءٍ ثمَّـتَ افتَرَقـوا(١١٧)

إنّ هذا التشبيه الجميل ، يرمي الشاعر– من ورائه – إلى قصد بعيد ، هو سرعة الموت الذي حينما يأتي يُبعِد الإنسان عن أحبّته ، وبالتالي فالصورة – هنا– ذات دلالة قوية على القصد الذي رمى اليه الشاعر.

وفي شعر أبي العتاهية صورة قريبة من الصورة السابقة ، وهي تعتمد التشبيه – أيضا– في رسمها ، وفيها إشارة إلى الدعوة للقيام بالعمل الصالح، وعدم اضاعة العمر بجمع المال وبناء القصور الفانية ، التي لا يسكنها صاحبها؛ لقدوم الموت سريعاً إليه:

جَمَعُـوا فمـا أكلـوا الـذي جَمَعـوا وَبَنَـوا مسـاكِنَهُمْ فمـا سَـكَنَوا

فكـأنَّهُمْ ظَعُـنٌ بهـا نزلـوا لَمَّـا اسْـتَرَاحوا سـاعة ظَعَنَـوا(١١٨)

إنّ أبرز ما يمكن أن نلاحظه في لوحات الشاعر الزمنية ، والتي رسمها في شعره ، أنها كانت تتميّز بصدق التعبير، وقوّة الإحساس ، وبالواقعية غير الاعتيادية ، فهي تعبّر عن أشياء واقعية ، وتخاطب النفس الإنسانية – في كلّ زمان ومكان – بصراحة غير معهودة ، محرّكة المشاعر عند سماع كلماتها ، أو رؤية ألوانها عن طريق الكلمالت المرسومة فيها، ومن تلك الصور التي يمكن أن نستدلّ بها على صحّة ما نزعم – فضلاً عمّا سبق – قول الشاعر:

كـأنّ المنايـا قـد قصَـدْنَ إليْكـا يُرِدْنَـكَ فـانظرْ مـالَهُنَّ لَـدَيْكا

سـيأتِيكَ يـومٌ لَسْـتَ فيـه بمُكْـرَمٍ بأكثرَ من حَثْوِ التَّرابِ عَلَيْكا(١١٦)

فمَن مِنَ الأموات يُكْرَمُ بأكثر من ذلك؟ ومن هنا كانت واقعية صور أبي العتاهية، فحثو التراب على الميت من لدن أهله وأقاربه وجيرانه وأصحابه ، لوحة ستبقى مرسومة مدى الدهر ، ولايمكن أن تُمْحَى ألوانها أبداً.

وللشاعر صورة تشبيهية أخرى، يشير فيها إلى سرعة قدوم الموت عن طريق الليالي والأيّام، فهي تخطف النفوس كخطف البرق ، وبهذا المعنى يقول أبو العتاهية:

ياللّيـالي وللأيّـام إنَّ لهـا فـي الخَلْـقِ خَطْفـاً كَخَطْـفِ البَـرْق فـي مَهَـلِ(١٢٠)

لقد كان أبو العتاهية واحداً من أبرز الشعراء العرب فيما يتعلق بطريقة تعامله مع الزمن، فهو لم يترك أمراً أو فعلاً من أفعاله، إلّا وتحدّث عنه ، واصفاً إيّاه بما يعتقده هو ، أوبما يعتقده الآخرون كما رأينا.

هوامش البحث

١– ينظر : الزمن في التراجيديا الإغريقية/ ٣٠١ وما بعدها ، نقلاً عن : الشعر والزمن / ١١.

٢– الزمان في الفكر الاسلامي/ ١٩٧.

٣– الشعر والزمن/ ٩.

٤– ينظر على سبيل المثال: الأزمنة والأمكنة ، والزمان الوجودي، ومفهوم الزمن عند الطفل، والزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، والزمن واللغة، والزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم.

٥– ينظر على سبيل المثال: الفاتحة/٤، والبقرة /٣٦،٧١، وآل عمران/٢٥، والنساء/١٨، ١٠٣، والأعراف/١٤ ، ٣٤، والتوبة/٤، ويونس/٥، وهود/ ٧، وابراهيم/٢٥، والحجر/٣٧–٣٨، والحج/٤٧ ،٦١، والفرقان/٥٩،

والقصص/٤١ ،٧١-٧٢، ولقمان/٢٩، والسجدة/٤-٥، وسبأ /٣٠، والصافات/٢٠، وفصلت/٩، والجاثية /٢٤، والمعارج/٤، والإنسان/ ١، والعصر/١.

٦- أبو العتاهية أشعاره وأخباره/٥٥٢.

٧- ينظر : الزمان الوجودي/١٥، وينظر مثل ذلك : المعتبر في الحكمة ٦٣/٣.

٨- أبو العتاهية أشعاره وأخباره /٢٢.

٩- م.ن /١١١.

١٠-ينظر : مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية/١١٠.

١١-أبو العتاهية أشعاره وأخباره / ١٥٩.

١٢-م.ن / ٥٣٦.

١٣-م.ن / ٣.

١٤-م.ن / ٥.

١٥-م.ن / ١٦٨.

١٦-م.ن / ٣٠٠-٣٠١.

١٧- ينظر: صحيح مسلم ٢/١٥ ، وينظر مثل ذلك : خمس رسائل مفيدة دارت بين حكيم المعرة وداعي دعاة الفاطميين حول فلسفة أبي العلاء واجتنابه أكل اللحوم / ١٧.

١٨-اللزوميات أو لزوم ما لايلزم ٢٢٦/٢.

١٩-أبو العتاهية أشعاره وأخباره / ١٨٤.

٢٠-م.ن / ٢٥٢.

٢١-م.ن / ٣٠٧.

٢٢-م.ن / ٣٦٤.

٢٣-م.ن / ٣٧٨.

٢٤-م.ن / ٣٨٨.

٢٥-ينظر : م.ن / ٢٥، ٣٣، ٤٧، ١١١، ١٣٢، ٢٠١، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٣٧، ٢٥١، ٢٩١، ٣٥٣.

٢٦-م.ن / ٢٢٣، وينظر مثل ذلك : ٢٩١.

٢٧-م.ن / ٢٣٧، وينظر : ٣٠٠-٣٠١.

٢٨-شوبنهور/ ٢١٥-٢١٦.

٢٩-أبو العتاهية أشعاره وأخباره / ٢٨.

٣٠-م.ن / ٣٣.

٣١-م.ن / ١٤٦.

٣٢-فكرة الزمان عند اخوان الصفا (دراسة تحليلية مقارنة) /١٢٩.

٣٣-أبو العتاهية أشعاره وأخباره / ١٧٨.

٣٤-م.ن / ١٩٠ ، وينظر : ٢٢٦، ٢٤٣، ٢٩٥، ٣٠٢.

٣٥-ينظر على سبيل المثال : م.ن / ١١٧، ١٤٤، ١٥٥، ١٩٨، ٢٠١، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٧٨، ٥٥٢، ٥٨٠.

٣٦-م.ن / ٣٣٣.

٣٧-رسائل فلسفية لابي بكر بن زكريا الرازي / ٢٧٨.

٣٨-أبو العتاهية أشعاره وأخباره / ٢٠١.

٣٩-الرسائل ١٥/٢.

٤٠-أبو العتاهية أشعاره وأخباره / ٣٥٣.

٤١-ينظر: الشيب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ ١٦٤-١٦٥.

٤٢-ينظر: م.ن / ١٦٥-١٦٦.

٤٣-ينظر على سبيل المثال : أبو العتاهية أشعاره وأخباره / ٢١، ٢٢، ٣٨، ٤٦، ٥٦-٥٧، ١٠٨، ١١٣-١١٤، ١٣٠، ١٣٣، ١٥٣، ١٥٥-١٥٦، ١٥٧، ١٧٨، ١٨٨، ١٩٠، ٢٠٢ ، ٢١١-٢١٢، ٢١٤، ٢٥٦ ، ٢٥٩، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٩٤، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٥٠، ٣٥٥، ٣٨٠-٣٨١، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩٨، ٤٠٥، ٤٢١، ٦٢٨.

٤٤-م.ن / ٢٠.

٤٥-م.ن / ٢٦، وينظر بالمعنى نفسه : ٢٩٨.

٤٦-م.ن / ٩٩.

٤٧-م.ن / ١٨٤.

٤٨-م.ن / ١٨٥.

٤٩-م.ن / ٢١٨-٢١٩.

٥٠-م.ن / ٢٤١.

٥١-م.ن / ٢٥٤.

٥٢-م.ن / ٣٤٣.

٥٣-م.ن / ٣٧٣.

٥٤-م.ن / ٢٢.

٥٥-م.ن / ٣١.

٥٦-ينظر على سبيل المثال: م.ن / ٣، ٤٧، ٥٨٠.

٥٧-م.ن / ٤٥٣.

٥٨-م.ن / ١٥.

٥٩-م.ن / ٢٢.

٦٠-م.ن /١٧٠.

٦١-م.ن / ١٩٨.

٦٢-م.ن / ٣٥٠.

٦٣-ينظر على سبيل المثال: م.ن / ١٨٨، ٢٥١، ٥٣٨، ٥٥٢، ٥٨٠.

٦٤-من / ١١٣-١١٤.

٦٥-م.ن / ١١٧.

٦٦-م.ن / ١٥٥-١٥٦.

٦٧-ينظر مثلاً : م.ن / ١٨٨، ٢٦١.

٦٨-م.ن / ٢٢٧.

٦٩-م.ن / ١٧٢.

٧٠-م.ن / ٢٣١.

٧١-م.ن / ٢٥٨.

٧٢-م.ن / ٢٨٣.

٧٣-م.ن / ٣٧١.

٧٤-م.ن / ٥٣٧-٥٣٨.

٧٥-م.ن / ٣٦٠.

٧٦-ينظر على سبيل المثال : م.ن / ١٥٦، ٢٣٨، ٢٧٠، ٢٧٢، ٣٠٩.

٧٧-م.ن / ٣.

٧٨-م.ن / ٢١٧-٢١٨، وينظر : ٢٥١، ٢٥٢.

٧٩-م.ن / ٥٦.

٨٠-م.ن / ١٣٣.

٨١-م.ن / ٢١١-٢١٢.

٨٢-م.ن / ٣١٧.

٨٣-م.ن / ٦٢٨.

٨٤-م.ن / ٢٥.

٨٥-م.ن / ٣٧.

٨٦-م.ن / ١١٦.

٨٧-م.ن / ٢١٤.

٨٨-م.ن / ٢٦٩.

٨٩-م.ن / ٢٧٨.

٩٠-م.ن / ٢٩٤.

٩١-م.ن / ٣٠٩، وينظر بالمعنى نفسه: ٣١٢.

٩٢-ينظر على سبيل المثال: م.ن/ ٣، ١٠٩، ١١٧، ١٧٢، ٢١٩، ٢٥١، ٣١٥، ٣٥٠، ٣٦٠، ٣٨٠-٣٨١، ٤٠٥.

٩٣-م.ن / ٥٩٢.

٩٤-م.ن / ٥٢٦.

٩٥-م.ن / ١٨٢.

٩٦-م.ن / ٥٢١.

٩٧-م.ن / ٥٢٢.

٩٨-م.ن / ٥٣٣.

٩٩-م.ن / ٥٦٩.

١٠٠- م.ن / ٢٩٩.

١٠١- م.ن / ٥٤٧.

١٠٢- م.ن / ٥٤٢.

١٠٣- م.ن / ٥٧٧.

١٠٤- ينظر على سبيل المثال :م.ن / ٣، ١٦٠، ٢٠٢، ٢١٧، ٢٢٩، ٢٥٢، ٢٧٢، ٢٧٨، ٣٢٠، ٣٦٤، ٣٨٨، ٥٢١، ٥٢٦، ٦٢٨.

١٠٥- م.ن / ١٠٨-١٠٩.
١٠٦- م.ن / ٣٨٧.
١٠٧- م.ن / ١٣٠.
١٠٨- م.ن / ١٤٤.
١٠٩- ينظر على سبيل المثال : م.ن / ١٥، ٢٢، ٣٧، ٩٩، ١١٦، ١٤٦، ١٥٥، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٥، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٩، ٣٥٣، ٣٨٠، ٤٢١، ٤٥٣، ٥٣١، ٥٤٢، ٥٨٠.
١١٠- م.ن / ٣٨.
١١١- م.ن / ٥٧.
١١٢- م.ن / ١٥٥.
١١٣- م.ن / ٣٦٠.
١١٤- م.ن / ١١٧.
١١٥- للتفصيل في ظاهرة التشخيص ، ينظر للباحث : التشخيص في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري (دراسة نقدية).
١١٦- أبو العتاهية أشعاره وأخباره / ٥٧.
١١٧- م.ن / ٢٤٩.
١١٨- م.ن / ٣٨٩.
١١٩- م.ن / ٢٥٩.
١٢٠- م.ن / ٣٢٢.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- صحيح مسلم، شرح النووي ، طبعة القاهرة ، ١٩٥٥م.
- أبو العتاهية أشعاره وأخباره، عُني بتحقيقها : الدكتور شكري فيصل، طبعة محققة على مخطوطتين ونصوص لم تُنشَر من قبل، مطبعة جامعة دمشق ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.
- الأزمنة والأمكنة، أبو القاسم الأزرقي، حيدر آباد الدكن، ط١، ١٣٣٢هـ.
- التشخيص في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري (دراسة نقدية)، ثائر سمير حسن الشمري، اطروحة دكتوراه مطبوعة بالآلة الكاتبة، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م.
- خمس رسائل مفيدة دارت بين حكيم المعرة وداعي دعاة الفاطميين حول فلسفة أبي العلاء واجتنابه أكل اللحوم، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ، مطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ.
- الرسائل ، أخوان الصفا، نشر: خير الدين الزركلي ، مطبعة العربية، مصر، ١٩٢٨.
- رسائل فلسفية لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي ، بول كراوس ، مطبعة بول باربيه ، مصر، ١٩٣٩م.
- الزمان في الفكر الاسلامي، ابراهيم العاتي، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم (مقال) ، الدكتور حسام الدين الآلوسي، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثامن، العدد الثاني ، يوليو/ سبتمبر ، ١٩٨٨م.

- الزمان الوجودي، الدكتور عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٥.
- الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره ، الدكتور صلاح الدين محمد عبد الحافظ، دار المعارف، مصر، ١٩٨٠م.
- الزمن في التراجيديا الإغريقية ، لدي روميلي ، عرض وتحليل : الدكتور محمد عواد حسين ، عالم الفكر ، المجلد الأول ، العدد الرابع ، الكويت ، ١٩٧١.
- الزمن واللغة ، الدكتور مالك يوسف المطلبي،الهيئة [كذا] المصرية العامة للكتاب ، ط١، ١٩٨٦م.
- الشعر والزمن، جلال الخياط، منشورات وزارة الاعلام – الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٥.
- شوبنهور، الدكتور عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية ، ط٢، ١٩٤٥م.
- الشيب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ثائر سمير حسن الشمري، رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الكاتبة ، كلية الآداب / جامعة بغداد، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
- فكرة الزمان عند اخوان الصفا (دراسة تحليلية مقارنة)، الدكتور صابر عبده أبا زيد محمد، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩م.
- اللزوميات أو لزوم ما لا يلزم، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، مطبعة الجمالية، مصر، ١٣٣٣هـ-١٩١٥م.
- مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية، آرنست كاسيرر ، ترجمة : الدكتور إحسان عباس ، والدكتور محمد يوسف نجم، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٦١م.
- المعتبر في الحكمة ، أبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادي ، حيدر آباد الدكن، ط١، ١٣٥٨هـ.
- مفهوم الزمن عند الطفل (مقال) ، الدكتور سيد محمد غنيم، مجلة عالم الفكر ، الكويت، المجلد الثامن،العدد الثاني، يوليو / سبتمبر، ١٩٧٧.